جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

قيمة الوطن عند المحدّثين

بقلم الدكتور

أسامة السيد محمود محمد

مدرس الحديث الشريف وعلومه بكلية
أصول الدين بالزقازيق

ملخـــص

إن للأوطان قيمة عليا، تكشف عن نبل طبع الرجال، ومعادن الأبرار منهم، وتستنهض في النفوس أشرف معاني البر والوفاء.

وقد جاء الهدي النبوي الشريف حافلاً بإشارات كثيرة لهذا الخلق العظيم، فكان حب الأوطان مما علمه (ﷺ) لأصحابه، وتشربوه منه وأقرهم عليه.

ولما أن المحدثون أقرب الناس إلى هدي النبوة الشريف، وأكثر الناس مخالطة له، ولحديثه وسنته المشرفة، كان إستجلاء قيمة الوطن من خلال شروحهم للحديث النبوي الشريف.

وقد شاعت في السنوات الماضية مقولات ظالمة، من نتاج فكر تيارات التطرف، تنكر قيمة الوطن، وتشوهها، وتصغرها في النفوس، مما أوجب على الباحثين النهوض إلى إستجلاء فكرة الوطن ونظرة أئمتنا إليها، من خلال الغوص في كتب علومهم على إختلاف فنونها ومجلاتها، لإبراز ثمرات العقول السليمة المستنيرة بهدي النبوة وأنوارها عند النظر إلى هذه القضية.

ومن هنا جاء هذا البحث حول قيمة الوطن عند الحفاظ والمحدثين، يبرز عظم مكانة الوطن عندهم، وأنهم بذلوا جهود جليلة للكشف عن القيمة الأخلاقية النبيلة.

وقد قسمته إلى عدة مباحث وهي:

المبحث الأول: جمع كلام الحفاظ والمحدثين وشراح الحديث عن قيمة الوطن وترتيبه على مسائل.

المبحث الثاني: ذكر طائفة من المحدثين برز عندهم ملمح حب الوطن، فتناقله المحدثون بعدها عنهم ومدحوهم به.

المبحث الثالث: في الكتب والمؤلفات التي أفردها الحفاظ والمحدثون وغيرهم عن الوطن، وأكثر المصنفين في هذا المبحث من المحدثين.

المبحث الرابع: في نبذة من كلام المفسرين والفقهاء والزهاد وبقية أرباب العلوم عن الوطن.

ABSTRACT

The people have a high value, revealing the nobility of printing men, the minerals of the righteous, and rise in the souls of the righteousness and fulfillment.

The Prophet's guidance was replete with many references to this great creation, and the love of the Prophet (PBUH) was taught to his companions, drank from him and acknowledged.

As the people who are the closest to the Holy Prophet, and the many people in contact with him, and for his talk and his honorable year, the value of the homeland was clarified through their commentaries to the Prophet's hadith.

In the past years, unjust arguments have become commonplace, resulting from the ideology of extremist currents, denying the value of the nation, distorting it, and giving it a glimpse into the souls, forcing the researchers to seek to clarify the idea of the homeland and look at it, by diving in their science books of different arts and magazines, to highlight the fruits of the sulay minds. Enlightened by the guidance of the prophecy and its lights when looking at this issue.

Hence, this research on the value of the nation when preserving and the modernstates, highlights the great place of the country and they have made great efforts to uncover the noble moral value.

It was divided into several detectives:

The first is to collect the words of preservation and the hadith and commentators about the value of the country and its arrangement on issues

The second discourse: a group of scholars who have emerged as a feature of the love of the homeland, and then passed by the Moderners and praised them.

The third discourse: in the books and literature, which are devoted by the preservation, the modernists and others about the country, and the most classified in **this discourse of the fourth discourse**: in a glimpse of the words of the interpreters and the scholars and the Masters and the rest of the scientists about the country ...

المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وختام الأنبياء والمرسلين، ورحمة الله تعالى للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد.

فإن للأوطان قيمة عليا، تكشف عن نبل طباع الرجال، ومعادن الأبرار منهم، وتستنهض في النفوس أشرف معاني البر والوفاء، والنفوس مجبولة على الامتنان لسوابق الإحسان.

وقد جاء الهدي النبوي الشريف حافلا بإشارات كثيرة لهذا الخلق العظيم، حيث جاء صلوات الله وتسليماته عليه بكل بر وإحسان وعرفان، كان حب الأوطان مما علمه (ﷺ) لأصحابه، وتشربوه منه، وأقرهم عليه.

ولما أن كان المحدثون أقرب الناس إلى هدي النبوة الشريف، وأكثر الناس مخالطة له، ولحديثه وسنته المشرفة، كان استجلاء قيمة الوطن من خلال شروحهم للأحاديث، وتآليفهم، من محاسن الأمور.

وقد شاعت في السنوات الماضية مقولات ظالمة، من نتاج فكر تيارات التطرف، تنكر قيمة الوطن، وتشوهها، وتصغرها في النفوس، مما أوجب على الباحثين النهوض إلى استجلاء فكرة الوطن ونظرة أئمتنا إليها، من خلال الغوص في كتب علومهم على اختلاف فنونها ومجالاتها، لإبراز ثمرات العقول السليمة المستنيرة بهدي النبوة وأنوارها عند النظر إلى هذه القضية.

ومن هنا جاء هذا البحث حول قيمة الوطن عند الحفاظ والمحدثين، يبرز عظم مكانة الوطن عندهم، وأنهم بذلوا جهودا علمية جليلة للكشف عن هذه القيمة الأخلاقية النبيلة، وقد قسمته إلى عدة مباحث:

المبحث الأول: جمع كلام الحفاظ والمحدثين وشراح الحديث عن قيمة الوطن وترتيبه على مسائل.

المبحث الثاني: في ذكر طائفة من المحدثين برز عندهم ملمح حب الوطن، فتناقله المحدثون بعدها عنهم ومدحوهم به.

المبحث الثالث: في الكتب والمؤلفات التي أفردها الحفاظ والمحدثون وغيرهم عن الوطن، وأكثر المصنفين في هذا الباب من المحدثين.

المبحث الرابع: في نبذة من كلام المفسرين والفقهاء والزهاد وبقية أرباب العلوم عن الوطن.

المبحث الأول

جمع كلام الحفاظ والمحدثين وشراح الحديث عن قيمة الوطن وترتيبه على مسائل

*** مسئلة في استنباطهم قيمة الوطن من حديث: (كان إذا قدم من سفر):**

روى الإمام البخاري وابن حبان في صحيحيهما والترمذي في سننه والنسائي في سننه الكبرى والبيهقي في السنن الكبرى وأحمد في المسند والبغوي في شرح السنة من حديث أنس (رضي الله عنه) **قال: كان النبي (ﷺ) إذا قدم من سفرٍ فنظر إلى درجات المدينة أوضع ناقته، وإن كانت دابة حركها من حبها)**[1].

وقوله: (أوضع ناقته) قال ابن الأثير في النهاية: (يقال: وضع البعير يضع وضعا، وأوضعه راكبه إيضاعا، إذا حمله على سرعة السير)[2].

ففي هذا الحديث الجليل تصرفٌ نبويٌّ هادٍ، محفوف بالعصمة، ومنزل بالوحي، تحرك به الجنان النبويُّ الشريف، ومن ورائه الإلهام الصادق، والوحي

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه/٣٣٧/١، ح١٨٣٠، كتاب العمرة، باب من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة، وابن حبان في صحيحه/٤٢٧/٦ إحسان/، كتاب الصلاة، باب ذكر ما يستحب للمرء الإيضاع إذا دنا من بلده، والترمذي في سننه/٤٩٩/٥ شاكر؟، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا رجع من السفر، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في السنن الكبرى/٢٤٦/٤/، كتاب المناسك والمواقيت، باب الإيضاع عند الإشراف، والبيهقي في السنن الكبرى/٤٢٧/٥/، كتاب الحج، باب الإسراع إذا قرب من بلده، وشرح السنة/٣١٥/٧/، كتاب الحج، باب فضل المدينة وحب النبي (ﷺ) إياها ودعائه لها، وقال: (هذا حديث صحيح).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر/١٩٦/٥/، ط: المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ، مصر، سنة ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي.

المبين، بحنين القلب إلى الوطن، ونزوع الفؤاد إليه، حتى إن كان (ﷺ) ليحرك دابته إلى المدينة المنورة إذا قفل من سفره، وأبصر جدرانها، من حبها وحنين الجنان الشريف إليها.

ولذلك قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري: (واحتج من فضل المدينة بقوله: "حركها من حبها" يريد من حبه للمدينة، قال: فقد خصها الله بفضائل كثيرة، منها: أن الله اختارها دارًا لنبيه، أفضل خلقه، وجعلها منزل وحيه، وحباها بقبره، ومنها نشر الله دينه وبَلَّغ شريعته، إلى ما لا يحصى من فضائلها، وتعجيل سيره (ﷺ) إذا نظر إليها من أجل أن قرب الدار يجدد الشوق للأحبة والأهل، ويؤكد الحنين إلى الوطن، وفى رسول الله (ﷺ) الأسوة الحسنة)[١].

وقال الحافظ ابن حجر في: (فتح الباري، في شرح صحيح البخاري): (وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حب الوطن، والحنين إليه)[٢]، ونحوه عند البدر العيني في عمدة القاري[٣].

فهذه شذرات من كلام المحدثين في شرح هذا الحديث الجليل، وأنه دالٌّ ومرشدٌ إلى حظ من السنن النبوية المشرفة، يتجاور مع بقية السنن الشريفة المتعلقة بالعبادات، والمتعلقة بالآداب والأخلاق، والمتعلقة بالحرف والصنائع ووجوه العمران، والمتعلقة بالعلاقات الواسعة بين الأمم، إلى آخر تلك المنظومة القيمية النبوية، الصانعة لشخصية الإنسان المسلم على حد التمام والكمال.

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال/٤/٥٥٥/، ط: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة ضبط نصه وعلق عليه: أبو تميم ياسر إبراهيم.

(٢) فتح الباري/٣/٧٢٧/، ط٣: المكتبة السلفية ومطبعتها، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ.

(٣) عمدة القاري/١٠/١٣٥/.

قال الحافظ الذهبي في: (سير أعلام النبلاء): (وكان يحب عائشة، ويحب أباها، ويحب أسامة، ويحب سبطيه، ويحب الحلواء، والعسل، ويحب جبل أحد، ويحب وطنه، ويحب الأنصار، إلى أشياء لا تحصى، مما لا يغني المؤمن عنها قط)[1].

فكشف الحافظ الذهبي هنا في هذه العبارة الذهبية عن جوامع من الهدي النبوي، تبين أن الجنان النبوي الشريف المنير بأنوار النبوة الباهرة، والعصمة الظاهرة، قد فاضت عنه المعاني النبيلة في حب زوجه المطهرة السيدة عائشة، وأبيها الصديق، والحب بن الحب أسامة بن زيد، وكان يحب الحلواء والعسل، وجبل أحد، والوطن، والأنصار، وغير ذلك، والمشاعر التي تفيض عن الجنان النبوي لا يخالطها هوى، فهي أصح المشاعر وأكثرها انطباقا على المراد الإلهي.

*****

*** مسئلة في استنباطهم قيمة الوطن من حديث (ثلاثة تستجاب دعوتهم) فذكر منهم (المسافر):**

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة، وروى ابن خزيمة في صحيحه، والروياني في مسنده، والطبراني في معجمه، والبغوي في شرح السنة، والخطيب في تاريخ بغداد من حديث عقبة بن عامر الجهني (ﷺ) أن النبي (ﷺ) قال: **(ثلاثة تستجاب دعوتهم: الوالد، والمسافر، والمظلوم)**[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء/١٥/٣٩٤/.

(٢) ورد الحديث من مسندي أبي هريرة وعقبة بن عامر (رضي الله عنهما)، أما حديث أبي هريرة فقد رواه الإمام أحمد في مسنده/٧/٢٩٩/ وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده، و/٨/٣٥٥/، وأشار إلى تحسين السيوطي له، و/٩/٢٥٨/، و/٩/٤١٤/ وحسن إسناده، و/٩/٥٤٥/، وأشار محققه حمزة الزين إلى أنه سبق له تصحيحه، و/٩/٥٦٢/، وأما حديث عقبة فقد ورواه ابن خزيمة في صحيحه/٤/١١٣/، والإمام أحمد في مسنده/١٣/٣٦٢/، والحافظ أبو بكر محمد بن هارون الروياني في مسنده/١/١٦٠/، والإمام الطبراني في المعجم=

جعل العلماء حب الوطن هو علة مشقة السفر مطلقا، حتى لقد ذهب إلى ذلك بعض شراح الحديث في تفسير هذا الحديث، فعلل الشراح سبب استجابة دعاء المسافر هو ما يعانيه من فاقة واضطرار وحزن لمفارقة وطنه وأهله، فقال العلامة المحدث المناوي في: (فيض القدير، شرح الجامع الصغير) شارحًا للحديث: (لأن السفر مظنة حصول انكسار القلب بطول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق والانكسار من أعظم أسباب الإجابة)(١).

فبرزت هنا قيمة الوطن، وأنها معنى مقصود في تعليل الأحكام الشرعية، تدور على أساسه الحكمة في وقوع أثر شريف في الملأ الأعلى وهو استجابة الدعاء، مما يكشف عن جانب آخر من حضور قيمة الوطن عند المحدثين، وأنهم يستصحبون هذا المعنى الجليل في تفسير كلام النبوة والكشف عن أسبابه وعلله وحكمه.

****

*** مسئلة في استنباطهم قيمة الوطن من حديث: (اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ):**

روى الإمام البخاري في صحيحه واللفظ له، ومسلم في صحيحه، وابن حبان في صحيحه، وأحمد في المسند من حديث عائِشَةَ (رضي الله عنها)، **قالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) المَدِينَةَ وُعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلالٌ، قالت: فدخلت عليهما فقلت: يا أبت! كيف تجدك؟ ويا بلال! كيف تجدك؟ قالت: وكانَ أَبُو بَكْرٍ إذا أَخَذَتْهُ الحُمَّى يَقُولُ:**

=الكبير/١٧/٣٤٠/، وقال الحافظ المنذري في (الترغيب والترهيب)/٣/١٣٠/: (رواه الطبراني بإسناد صحيح)، وقال الحافظ الهيثمي في: (مجمع الزوائد)/١٠/١٥١/: (وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الْأَزْرَقِ، وَهُوَ ثِقَةٌ)، ورواه البغوي في شرح السنة/١٠/٣٨١/، والخطيب في تاريخ بغداد/١٤/٣٥٧/.

(١) فيض القدير/٣/٣١٧/، ط: دار الفكر، بيروت، لبنان، (د ت).

كُـلُّ امْـرِئٍ مُصَـبَّحٌ فِـــي أَهْلِـهِ * والمَوْتُ أَدْنَى مِـــــنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

*****

وَكانَ بِلَالٌ إذا أُقْلِعَ عَنْهُ يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ فيَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِـــــعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً * بِوادٍ وَحَـــــــــوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًـــــــا مِياهَ مَجَنَّةٍ * وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شامَـــــــةٌ وَطَفِيلُ

قالَ: قالت عائشة: فجئت رسول الله (ﷺ) فأخبرته، فقال: **اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حُمَّاها فاجعلها بالجحفة**(١).

وقد وقف شراح الحديث عند هذا الحديث الشريف وقفة تحليلية جليلة تبين استنباط معنى الوطن من هذا الحديث،

قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري: (وقال بعض العلماء: وأما حديث عائشة حين وُعك أبو بكر وبلال وإنشادهما في ذلك؛ فإن الله تعالى لما ابتلى نبيه بالهجرة وفراق الوطن، ابتلي أصحابه بما يكرهون من الأمراض التي تؤلمهم، فتكلم كل إنسان منهم حسب يقينه وعلمه بعواقب الأمور، فتعزى أبو بكر عند أخذ الحمى له بما ينزل به الموت في صباحه ومسائه، ورأى أن ذلك شامل للخلق، فلذلك قال: كل امرئ مصبح في أهله. يعني: تصبحه الآفات وتمسيه، وأما بلال فإنما تمنى الرجوع إلى مكة: وطنه الذي اعتاده، ودامت فيه صحته، فبان فضل أبي بكر وعلمه بسرعة فناء الدنيا حتى مثل الموت بشراك نعله)(٢).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه/٣/١١٧٨ /، كتاب المرضى، باب من دعا برفع الوباء والحمى، ومسلم في صحيحه/١/٥٦١ /، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها، وابن حبان في صحيحه/٩/٤٠/، كتاب الحج، باب ذكر سؤال المصطفى (ﷺ) ربه أن يحبب إليه المدينة كحبه مكة أو أشد، وأحمد في المسند/١٧/٣٠٨ شاكر/.

(٢) شرح ابن بطال على صحيح البخاري/٤/٥٥٨/.

فهنا ظهرت فكرة الوطن في هدي النبوة وفي فهم الصحابة الكرام، ثم تفاضلت درجات الصحابة في درجات اليقين والنزوع إلى الآخرة، لكن أحوالهم جميعها أحوال فاضلة، استقوها من الهدي النبوي الشريف، والمتردد بين فإنه دائر بين أنوارٍ وفهوم عوال، تليق بمقاماتهم العلية، وما كان يفيض عنهم من أحوال شريفة، كان مما ظهر فيها: معنى إجلال الوطن والحنين إليه.

****

*** مسئلة في استنباطهم قيمة الوطن من حديث: (قَفْلَةٌ كَغَزْوَةٍ).**

روى الإمام الحاكم في مستدركه، والإمام أبو داود في سننه، والإمام أحمد في مسنده، والإمام الطحاوي في (شرح مشكل الآثار)، والإمام البغوي في (شرح السنة) عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: **(قَفْلَةٌ كَغَزْوَةٍ)**[1].

والقفلة بفتح القاف قال ابن الأثير: (المرة من الْقفول)[2]، أي الرجوع.

وقد تعرض لشرحه الإمام أَبُو سُلَيْمان الْخطابِي في: (معالم السنن)، ففهم منه غير معنى، منها: الإشارة النبوية إلى معنى الوطن إشارة في غاية اللطف، وقد نقلها عن الخطابي أيضا الإمام البغوي في شرح السنة، قال الخطابي: (هَذَا يحْتَمل وَجْهَيْن: أَحدهمَا: أَن يكُون أَرَادَ بِهِ القفول عنِ الْغَزْو، وَالرُّجُوع إِلى الوطن، يقُول: إِن أجر الْمُجَاهِد فِي انْصِرَافه إِلى أَهله كأجره فِي إقباله إِلى الْجِهَاد، وذلِك

(١) رواه الحاكم في المستدرك/٢/٨٣ ح٢٣٩٩/، كتاب الجهاد، وقال: (هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)، وأبو داود في سننه/٢/٤٢٦ مكنز/، كتاب الجهاد، باب في فضل القفل في سبيل الله، وأحمد في المسند/٦/١٨٧ شاكر/ وقال العلامة المحدث الشيخ أحمد شاكر: (إسناده صحيح)، والطحاوي في شرح الآثار/٨/٣٠٩/، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله (ﷺ) من قوله: (قفلة كغزوة)، والبغوي في شرح السنة/١١/١٤/، كتاب السير والجهاد، باب أخذ الجعل.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر/٤/٩٣/.

لِأَن تجهيز الْغَازِي يضرُّ بأَهْله، وفِي قُفوله إِلَيْهِم إزالةُ الضَّرَر عَنْهُم، واستجمام للنَّفس، واستعداد بِالْقُوَّةِ للعودِ.

وَالْوَجْه الآخر: أَن يكُون أَرَادَ بِذلِك التعقيب، وهُو رُجُوعه ثَانِيًا فِي الْوَجْه الّذِي جَاءَ مِنْهُ منصرفًا، وَإِن لمْ يلق عدوا، وقدْ يفعل الْجَيْش ذلِك لأحد أَمريْن: أَحدهمَا: أَن الْعَدو إِذا رَأَوْهُمْ قد انصرفوا عنْ ساحتهم أمِنوهم، فَخَرجُوا من مكامنهم، فإِذا قفل الْجَيْش إِلى دَار الْعَدو، نالوا الفرصة مِنْهُم، فَأَغَارُوا عَلَيْهِم.

وَالْآخر: أَنهم إِذا انصرفوا من مغزاهم ظَاهِرين لمْ يأمنوا أَن يقفُو الْعَدو أَثَرهم، فيوقعوا بِهِمْ وهُمْ غَارونَ، فَرُبمَا استظهر الْجَيْش، أَوْ بعْضهم بِالرُّجُوعِ على أدراجهم ينقضون الطَّرِيق، فإِن كَانَ من الْعَدو طلب، كانُوا مستعدين للقائهم).

والوجه الأول موافق لما ذكرته سابقا ويأتي لاحقا من ظهور قيمة الوطن في هدي النبوة، وأن تنزيل القفول منزلة الغزو فيه إشارة إلى أنه عند وقوع الأمان ووقف الحروب ورجوع الجنود إلى أوطانهم يستفيض العمران، وتعمر البلدان، وتروج التجارات، وتستفيض أمور المعايش ومنافع الناس إلى غير ذلك من المقاصد الشرعية المعتبرة، ولا شك أن كل ذلك محقق لأمان الأوطان، ونابع من حبها.

******

*** مسئلة في استنباطهم قيمة الوطن من حديث: (بسم الله! تربة أرضنا، بريقة بعضنا، ليشفى به سقيمنا، بإذن ربنا).**

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، وأبو داود في سننه، وغيرهم، عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها): أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: **(بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا)**[1].

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه/٣/١١٨٩ /، كتاب الطب، باب رقية النبي (ﷺ)، والإمام مسلم في صحيحه/٢/٩٥١ /، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة، وأبو داود في سننه/٢/٦٥٥ /، كتاب الطب، باب كيف الرقى.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (وقال الْبَيْضَاوِي: قد شَهِدَتِ الْمَبَاحِثُ الطِّبِّيَّةُ على أَنَّ لِلرِّيقِ مُدْخَلًا فِي النُّضْجِ وَتَعْدِيلِ الْمِزَاجِ، وَتُرَابُ الْوَطَنِ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي حِفْظِ الْمِزَاجِ وَدَفْعِ الضَّرَرِ؛ فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسَافِرِ أَنْ يَسْتَصْحِبَ تُرَابَ أَرْضِهِ إِنْ عَجَزَ عَنِ اسْتِصْحَابِ مَائِهَا حَتَّى إِذَا وَرَدَ الْمِيَاهَ الْمُخْتَلِفَةَ جَعَلَ شَيْئًا مِنْهُ فِي سِقَائِهِ لِيَأْمَنَ مَضَرَّةَ ذَلِكَ)[1].

وقال الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس: (فقد علم الناس من قبل أربعة عشر قرناً أن تربة الوطن معجونة بريق أبنائه، تشفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقداً من المحبة والإخلاص له، وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرر لهم من منن الوطن منّة كانوا عنها غافلين، فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تغذي وتروي، فجاءهم من علم النبوة أنها تشفي فليس هذا الحديث إرشاداً لمعنى طبي، ولكنه درس في الوطنية عظيم، ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرقى والطب، فإنه بباب "حب الوطن" أشبه)[2]، وسيأتي نقل كلامه بتمامه في المبحث الذي فيه نبذة من كلام المفسرين والفقهاء والزهاد عن الوطن.

******

*** مسئلة في استنباطهم قيمة الوطن من حديث: (أو مخرجيَّ هم):**

روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة (رضي الله عنها) في حديث بدء الوحي، فجاء فيه أنه صلى الله عليه لما انطلق مع خديجة إلى ورقة بن نوفل قال له وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا

---

(١) فتح الباري/١٠/٢٠٨/.

(٢) مجالس التذكير، من كلام الحكيم الخبير/٣٧٨/، ط٢: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، جمع وترتيب الدكتور توفيق محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان.

جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): **(أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ)، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.. الحديث)**[1].

وقد استنبط الإمام السهيلي في (الروض الأنف) من هذا الحديث الجليل معنى جليلا يتعلق بحب الوطن، قال (~): (بَقِيّةٌ مِنْ حَدِيثِ وَرَقَةَ: وَذَلِكَ أَنّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ (ﷺ): "لَتُكَذّبَنّهْ"، فَلَمْ يَقُلْ لَهُ النّبِيّ (ﷺ) شَيْئًا، ثُمّ قَالَ: "وَلَتُؤْذَيَنّهْ" فَلَمْ يَقُلْ لَهُ شَيْئًا، ثُمّ قَالَ: "وَلَتُخْرَجَنّهْ"، فَقَالَ: "أَوَمُخْرَجِيّ هُمْ؟ " فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى حُبّ الْوَطَنِ وَشِدّةِ مُفَارَقَتِهِ عَلَى النّفْسِ.

وَأَيْضًا فَإِنّهُ حَرَمُ الله، وَجِوَارُ بَيْتِهِ، وَبَلْدَةُ أَبِيهِ إسْمَاعِيل، فَلِذَلِكَ تَحَرّكَتْ نَفْسُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْخُرُوجِ مِنْهُ مَا لَمْ تَتَحَرّكْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ "أَوَ مُخْرَجِيّ هُمْ؟"

والموضعُ الدال عَلَى تَحَرّكِ النّفْسِ وَتَحَرّقِهَا إدْخَالُ الْوَاوِ بَعْدَ أَلِفِ الِاسْتِفْهَامِ مَعَ اخْتِصَاصِ الْإِخْرَاجِ بِالسّؤَالِ عنه، وذلك أن الواو تُرَدّ إلَى الْكَلَامِ الْمُتَقَدّمِ، وَتُشْعِرُ الْمُخَاطَبَ بِأَنّ الِاسْتِفْهَامَ عَلَى جِهَةِ الْإِنْكَارِ، أَوْ التّفَجّعِ لكلامه، أو التّأَلّمِ منه)[2].

قال الحافظ أبو شامة في كتاب (المبعث): (قَالَ السُّهيْلي: " وَفِي حَدِيث ورقة أَنه قَالَ لرَسُول الله (ﷺ) لتكذبنه، فَلم يقل لَهُ النَّبِي (ﷺ) شَيْئا، ثمَّ قَالَ: ولتؤذينه، فَلم يقل النَّبِي (ﷺ) شَيْئا، ثمَّ قَالَ: ولتخرجنه، فَقَالَ: أَو مخرجي هم؟

فَفِي هَذَا دَلِيل على حب الوطن وَشدَّة مُفَارقَته على النَّفس)[3]**، قلت:** فأقر الحافظ أبو شامة هذا الاستنباط الحسن من السهيلي.

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه/٣/١ /، كتاب بدء الوحي، باب منه، والإمام مسلم في صحيحه/٧٩/١/، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (ﷺ).

(٢) الروض الأنف/٢٧٣/٢/، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، تحقيق عمر عبد السلام السلامي.

(٣) شرح الحديث المنتقى، في مبعث النبي المصطفى/ص١٦٣/.

لكن نازع فيه شيخ الإسلام التقي السبكي، قال ولده الإمام تاج الدين في: (طبقات الشافعية الكبرى): (ذكر الْوَالِد (رضي الله عنه) مرّة مَا قَالَه السُّهيْلي فِي قَوْله (ﷺ) "**أو مخرجيَّ هم**"، وَأَن فِيهِ دَلِيلا على حب الوطن، ثمَّ قَالَ: أحسن من حب الوطن أَن يُقَال: تحركت نَفسه لما فِي الْإِخْرَاج من فَوَات مَا ندب إِلَيْهِ من إِيمَانهم وهدايتهم، فَإِن ذَلِك مَعَ التَّكْذِيب والإيذاء مترقب، وَمَعَ الْإِخْرَاج مُنْقَطع، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي لَا شَيْء عِنْد الْأَنْبِيَاء (عليهم السلام) أعظم مِنْهُ، لِأَنَّهُ امْتِثَال أَمر الله تَعَالَى، وَأما مُفَارقَة الوطن فَهُوَ أَمر جبلي، وَالنَّبِيّ (ﷺ) أجل وَأَعْلَى مقَاما من الْوُقُوف عِنْده فِي هَذَا الموطن الْعَظِيم)[1].

وأقول: هنا تعليق؛ حيث إن كلام الإمام السبكي في غاية الحسن، والكشف عن حقائق المعاني التي تجري على الجنان النبوي الشريف، وهو رغم ذلك يمكن التعقيب عليه بما يجتمع به كلامه مع كلام الإمامين: السهيلي وأبي شامة، حيث إن اشتداد الأمر عليه (ﷺ) راجع إلى مجموع أمور، وكلها نابعة من عين الوحي، منزهة عن الجبليات والبشريات المحضة التي تصان عنها بواطن الأنبياء المعصومة بالوحي؛ فمنها: فوات ما ندبه الله إليه وأقامه فيه من إيمانهم وهدايتهم، ومن جملة ما جاءهم به ليومنوا به البر بالأوطان والوفاء لها، فلئن كذبوه وأبوا قبول هديه –وهذا راجع إليهم هم– فلا يحملوه على الخروج الذي ينتقل به عن وطنه، فيرجع هذا إليه هو، في حال أن همم الأنبياء تأبى ترك البر ولو بحال الاضطرار، مما أشار إليه صلوات الله وتسليماته عليه فيما رواه الترمذي من قوله: **(مَا أَطْيَبَكِ من بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إليَّ! وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ؛ مَا سَكَنْتُ**

(١) طبقات الشافعية الكبرى/١٠/٢٨٥/، ط: دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي.

غَيْرَكِ)[1]، وإنما اخترت لفظ الترمذي لأنه صلوات الله وسلامه عليه أرجع جميع أسباب اشتداد فراقها عليها إلى ما يعود لفضلها في ذاتها، وحبه (ﷺ) إياها، فتمحض الكلام هنا للإشارة إلى ما اقترفوه من الحيلولة بينه وبين معنى شريف وهو كمال البر بهذا البلد الكريم المحبب إليه، فاشتد ذلك عليه صلوات الله تعالى عليه، فيكون سبب الاشتداد مركبا من مجموع الأمرين، وبه يلتئم كلام الأئمة، ويصان جناب النبوة عن البشريات المحضة، ويخلص لنا أيضا ثبوت معنى الوطن وأنه من جملة ما جاءت به مواريث النبوة.

ولعل ما يشير إلى ذلك هو قوله تعالى: **(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)**[2].

فاستعمل القرآن هنا معنى الإخراج الذي أشار إليه سيدنا ورقة، والذي سأل عنه سيدنا محمد (ﷺ) في قوله: **(أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ)**، وجعله أحد ثلاثة أغراض يرمي إليها أولئك المعاندون من وراء مكرهم، وكلها تحول دون البلاغ عن الله، وتزيد إلى ذلك أن تعتدي على جنابه الشريف بالقتل، أو بالإخراج الذي يحول دون البلاغ وأيضا يحمله اضطرارا على فراق بلد أحبه الله، فينفلق الأمر عن التلويح بمعنى تعلق بواطن الأنبياء بأماكن وبقاع اختارها الله لهم بلدا، فأحبوها، ومن هنا جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: **(لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)**[3].

*****

(١) رواه الترمذي في سننه/٢/٩٨٩ /، كتاب المناقب، باب فضل مكة، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٠.

(٣) سورة البلد، الآيتان ١ و٢.

هذا وقد قال بعض الحكماء: الحنين إلى الوطن من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشد.

ولقد فطر الله تعالى الخلائق جميعا على الميل الفطري الحنيف اللطيف إلى أوطانها، وأودع سبحانه في الفِطَر النقية من سائر الموجودات قرارا وسكونا وانشراحا إلى الوطن، حتى إن المتأمل ليجد ذلك في سائر أجناس الوجود، فالآساد والأشبال تأوي إلى عرينها، والإبل تحن إلى أعطانها، والنمل يحن إلى قراه، والطيور تهوي وتميل إلى وكناتها، والإنسان مجبول على مفطور على شدة الحنين إلى الوطن، وقد قال المحدث الجليل أبو الفرج ابن الجوزي (~) في: (مثير الغرام الساكن): (والأوطان أبدًا محبوبة)[1].

وقد لاحظت العرب ذلك، وتفننت في تسمية أوطان الكائنات، حتى قال الحافظ ابن حجر في: (فتح الباري): (والعرب تفرق في الأوطان، فيقولون لمسكن الإنسان: وطن، ولمسكن الإبل: عطن، وللأسد: عرينٌ وغابةٌ، وللظبي: كِنَاسٌ، وللضب: وِجَارٌ، وللطائر: عُشٌّ، وللزنبور: كُورٌ، ولليربوع: نافق، وللنمل: قرية)[2].

قلت: ولتلك الأجناس جميعا حنين إلى أوطانها، حتى جمع ربيعة البصري على سبيل المثال كتابا في: (حنين الإبل إلى الأوطان)، فكيف بالإنسان؟!.

فإذا كانت أجناس الوجود كلها من حولنا رغم أنها عجماء لا تفصح ولا تبين، قد تبين من ملاحظة طباعها وأحوالها شدة وفائها وحنينها إلى أوطانها، فالإنسان أولى بذلك منها، لما يمتاز به عنها من الكمالات الإنسانية، التي تجمله محلا لكل

---

(١) مثير الغرام الساكن، إلى أشرف الأماكن/ص٧٥/، ط: دار الحديث، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

(٢) فتح الباري/٦/٣٥٨/، وسبقه إليه ابن الجوزي في: كشف المشكل من حديث الصحيحين/٣/٣٦٣/، ط: دار الوطن، الرياض، سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

خلـق كـريم، والوفـاء والمـروءة علـى رأس تلـك الشـمائل، حتـى قـال أحمـد شوقي (~):

وللأوطان في دم كلِّ حُرٍّ * يدٌ سَلَفَتْ ودَيْنٌ مُسْتَحَقٌّ

وأقول على غرار ذلك: الإنسان لكمال إنسانيته أولى بالوفاء للوطن، والقيام بمحبته وصيانته من سائر تلك الأجناس.

المبحث الثاني
في ذكر طائفة من المحدثين برز عندهم
ملمح حب الوطن، فتناقله المحدثون بعدها عنهم ومدحوهم به

إذا كان المبحث السابق تأصيلًا وتنظيرًا لقيمة الوطن عند المحدثين، فمن الملائم أن نتبعه طائفة من تصرفاتهم وتطبيقاتهم العملية، التي ظهرت فيها منهم المواقف الدالة على تمكن هذا الخلق النبوي الكريم من طباعهم، فمن ذلك:

* أن قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الْمُحَدِّثُ كان قَدْ رُزِقَ مِنَ النَّصِيبِ فِي الدُّنْيَا وَالْجَلَالَةِ، وَحَمَلَ النَّاسُ الْعِلْمَ عَنْهُ، وَكَانَ بِبَغْدَادَ، فَعَبَرَ مَرَّةً عَلَى مَكَانِ مَوْلِدِهِ وَمَنْشَئِهِ صَغِيرًا بِبَغْلَانَ، قِيلَ: وَهِيَ ضَيْعَةٌ مِنْ أَصْغَرِ الضَّيَاعِ، فَتَمَنَّى أَنْ لَوْ كَانَ مُقِيمًا بِهَا، وَيَتْرُكَ رِئَاسَةَ بَغْدَادَ، دَارِ الْخِلَافَةِ، قال أبو حيان في (البحر المحيط) -وقد ساق قصته هذه-: (وَذَلِكَ نُزُوعٌ إِلَى الْوَطَن)[1].

فانظر كيف وقف الإمام أبو حيان في تفسيره شارحا لهذا الموقف، ومبرزا لما يشتمل عليه من معان وقيم قد استقرت في وجدانه، وأظهرتها المواقف، مما يكشف عن تأصيل قيمة الوطن عندهم، وأنهم فهموا هدي النبوة الشريف في هذا الباب وتخلقوا به.

* ومن ذلك الإمام أَحْمد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن بشر بن معقل بن حسان ابْن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الله بن معقل، الشَّيْخ الْجَلِيل، أَبُو مُحَمَّد المزني المعقلي الهروي، كان يلقب بالباز الْأَبْيَض، وعرف بـ(قتيل حب الوطن)، العلامة المحدث وشيخ المحدثين، من تلامذته: أبو عبد الله الحازمي والحاكم النيسابوري.

---

(١) البحر المحيط/٢/٥٧٧/.

قَالَ الْحَاكِم: (كَانَ إِمَام أهل الْعلم وَالْوُجُوه وأولياء السُّلْطَان بخراسان فِي عصره بِلَا مدافعة سمع بهراة ونيسابور ومروالروذ وجرجان ونسا وبغداد وَالْبَصْرَة وَمَكَّة ومصر والأهواز).

وَمن شعر الشَّيْخ الْجَلِيل:

(نزلنَــا مكــرهين بهَــا فَلَمَّــا * ألفناهــا خرجنَــا مكرهينــا)

(وَمَــا حــب الــديار بِنَــا وَلَكِــن * أَمــر الْعَــيْش فرقــة مــن هوينــا)

قيل كَانَ الشَّيْخ الْجَلِيل قَتِيل حب الوطن، أمْلى مَجْلِسًا فِي هَذَا الْمَعْنى، وَمرض عقبه، وَتوفى بعد جُمُعَة، فِي سَابِع عشر شهر رَمَضَان سنة سِتّ وَخمسين وثلاثمائة[1].

فهذا مجلس إملاء حديثي جليل، في حب الوطن وافتدائه بالنفس، أملاه إمام محدث حافظ، بل شيخ لمحدثي زمنه، وكل ذلك يكشف عن جهود وأعمال للمحدثين في تأصيل قيمة الوطن، حتى سرت إلى انعقاد مجالس الإملاء لها، لتنطق المجالس الحديثية بهذه القيمة العليا، وتساق لها الأحاديث والمرويات والأسانيد، وتكتب طباق السماع، وتُسْتَنْسخ الأجزاء الحديثية، معربة عن حب الوطن.

*** وقد قال الحافظ ابن رجب الحنبلي:** (لَمَّا خُلِقَ آدَمُ (عليه السلام) أُسْكِنَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أُهْبِطَا مِنْهَا وَوُعِدَا بِالرُّجُوعِ إِلَيْهَا، وَصَالَحُ ذَرِّيَّتِهِمَا، فَالْمُؤْمِنُ أَبَدًا يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ الْأَوَّلِ، وَحُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَا قِيلَ:

كَمْ مَنْزِلٍ لِلْمَرْءِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ)[2].

(١) طبقات الشافعية الكبرى/٣/١٨/.

(٢) جامع العلوم والحكم/٢/٣٧٩/.

المبحث الثالث
في الكتب والمؤلفات التي أفردها الحفاظ والمحدثون وغيرهم عن الوطن، وأكثر المصنفين في هذا الباب من المحدثين

ولم يزل هذا المعنى يستفيض عند الأقدمين، وتتسع مادة الكلام فيه، حتى أفرد بالتآليف:

* فألف الجاحظ كتابه: (حب الوطن)، وقد طبع[1]، وقد صدَّرت بهذا الكتاب النفيس لسببين:

الأول: أقدميته، وأنه كان رائدا في هذا الباب، فلا أعلم أحدا قبله سبقه إلى التصنيف في هذه القضية.

الثاني: أن له أثرًا بليغًا فمن جاء بعده من المفسرين والمحدثين، فقد تأثر به الإمام فخر الدين الرازي من المفسرين، كما سيأتي عند نقل كلام الإمام الرازي في المبحث الذي أورد فيه نبذة من كلام المفسرين والفقهاء والزهاد وبقية أرباب العلوم عن الوطن، وتأثر به الحافظ الإمام الرامهرمزي من المحدثين كما سيأتي عند الكلام على كتابه (المناهل والأعطان، والحنين إلى الأوطان).

******

* **ومنهم:** القاضي أبو طاهر صالح بن جعفر بن عبد الوهاب الهاشمي الصالحي الحلبي القاضي، (أحد أَعْيَان أهل حلب الْمَشْهُورين بالأدب وَالدّين، مَاتَ سنة خمس وَتِسْعين وثلاثمائة، وَكَانَ يلقب بالمحبرة؛ لأنه كَانَ قَصِيرا وَكَانَ أكثر لبسه السوَاد)[2].

---

(١) طبعت رسالة (الحنين إلى الأوطان) للجاحظ، في دار الرائد العربي، بيروت، سنة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٢) الوافي بالوفيات/١٦/١٤٧/.

وقد صنف كتابًا جليلا في الحنين إلى الأوطان، ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في: (تاريخ دمشق)، ووصف منهجه فيه، فقال: (وصنف كتابًا في الحنين إلى الأوطان، روى فيه عن شيوخه هؤلاء وغيرهم)[1].

قلت: فهذا إذن كتاب على طريقة المحدثين وأهل الأثر، يسوق فيه الأحاديث والآثار والشواهد بأسانيده، ويبدو أنه كتاب واسع، أسند فيه من طريق شيوخ كثيرين، حيث ذكر له الحافظ ابن عساكر سبعة من شيوخه الذين سمع منهم، ثم قال عن كتابه (الحنين إلى الأوطان): (روى فيه عن شيوخه هؤلاء وغيرهم)، مما يشير إلى اتساع مادته، وتفننه في الرواية، وكثرة شيوخه.

كانت هذه إشارات الحافظ ابن عساكر لوصف منهج الكتاب إجمالا، في المجلد الثالث والعشرين من (تاريخ دمشق)، ثم يمضي إلى المجلد السبعين فيسوق مقتطفا من الكتاب يزيدنا قربا من مادته، ويطلعنا على نموذج منه، قال: (قرأت في كتاب لبعض الشاميين جمعه في: "الحنين إلى الأوطان": أنا أحمد بن محمد البغدادي، أنا أبو بكر بن دريد، قال: تزوج معاوية بن أبي سفيان ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد، فبقيت عنده مديدة، فسئمته فأنشأت تقول –وحنت إلى

لبيت تخرق الأرواح فيه * أحب إلي من قصر منيف
وكلب ينبح الطُّرَّاق عني * أحب إلي من قطٍّ أَلُوف
وبَكْرٍ يتبع الأظعان صعب * أحب إلي من بغل زفوف
ولُبْسُ عباءةٍ وتَقَرُّ عيني * أحب إلي من لبس الشفوف
وخرق من بني عمي نحيف * أحب إلي من علج عليف
وأصوات الرياح بكل فج * أحب إلي من نقر الدفوف

(١) تاريخ دمشق/٢٣/٣٢٥/.

خشونة عيشتي في البدو أشهى * إلى نفسي من العيش الطريف

فما أبغي سوى وطني بديلا * فحسبي ذاك من وطن شريف

عليف: أي سمين، والقط هاهنا: السنور، والقط: الكتاب، والقط: ساعة من الليل)[1].

وإن كان الحافظ ابن عساكر قد أبهم هنا اسم مؤلف الكتاب، فإن طريقة المحدثين في تعيين المبهمات تسعفنا في تعيينه، وأنه هو بعينه القاضي صالح بن جعفر بن عبد الوهاب، وقرينة المحدثين هنا هي أن صاحب الكتاب أسند هذه الواقعة من طريق شيخه: أحمد بن محمد البغدادي، وهو بعينه شيخ القاضي صالح بن جعفر؛ إذ قال ابن عساكر في ترجمة صالح بن جعفر –وهو يذكر شيوخه في السماع– ما نصه: (وأبا الحسين أحمد بن محمد بن يعقوب البغدادي نزيل دمشق)[2].

والحاصل أن هذا مقطع نفيس من كتاب (الحنين إلى الأوطان) للقاضي صالح بن جعفر الهاشمي (~)، يكشف لنا عن خطته وطريقته، ويبين لنا أنه حافل بجمع الشواهد النادرة الناطقة بحب الأوطان والحنين إليها، وإن كان العيش فيها خشنا، عسيرا، وأن هذا من أشرف الشمائل والأخلاق.

وقد حفظ لنا ياقوت الحموي مقطعا آخر من كتاب (الحنين إلى الأوطان)، قال في: (معجم الأدباء): (والأقحوانة موضع بالأردنّ من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية، حدث هشام بن الوليد عن أبيه، قال: خرج قوم من مكة نحو الشام، وكنت فيهم، فبينما نحن نسير في بلاد الأردن من أرض الشام إذ رفع لنا قصر، فقال بعضنا لبعض: لو ملنا إلى هذا القصر فأقمنا بفنائه حتى نستريح،

---

(١) تاريخ دمشق/٢٣/٣٢٤/.

(٢) تاريخ دمشق/٢٣/٣٢٥/.

ففعلنا، فبينما نحن كذلك إذ انفتح باب القصر وانفرج عن امرأة مثل الغزال العطشان، فقالت: من أي القبائل أنتم ومن أي البلاد؟ قلنا: نحن أضاميم من ههنا وهناك، فقالت: أفيكم من أهل مكة أحد؟

قلنا: نعم، فأنشأت تقول:

من كان يســـأل عنا: أين منزلنا؟ * فالأقحوانـــــــــة منا منزل قمن

وإن قصري هذا مـــــــا به وطني * لكن بمكة أمســـى الأهل والوطن

إذ نلبس العيش صـــفوا ما يكدّره * قول الوشاة، وما ينبو بـــه الزّمن

من كان ذا شجن بالشـــام ينزله * فبالأباطح أمســـــى الهمّ والحزن

ثم شهقت شهقة وخرّت مغشيّا عليها، فخرجت عجوز من القصر فنضحت الماء على وجهها وجعلت تقول: في كل يوم لك مثل هذا مرّات، تالله للموت خير لك من الحياة.

فقلنا: أيّتها العجوز ما قصّتها؟ فقالت: كانت لرجل من أهل مكة فباعها، فهي لا تزال تنزع إليه حنينا وشوقا.

قال القاضي الشريف أبو طاهر الحلبي صاحب كتاب "الحنين إلى الأوطان" -عند فراغه من هذا الخبر-: والأقحوانة ضيعة على شاطئ بحيرة طبرية، وقمن أي دان قريب، وعندي أن الجارية أرادت الأقحوانة التي بمكة، وقمن بفتح الميم أي خليق، تعني أن ذلك المنزل جدير أن أكون فيه.

ثم عقب ياقوت بقوله: (ولم أر في كتب اللغة القمن بمعنى القرب، إنما قال الأزهري: القمن بكسر الميم القريب والقمن السريع)[1].

(١) معجم البلدان/١/٤٣٤/.

فعقب عليه المحدث الحافظ الكبير السيد محمد مرتضى الزبيدي في (تاج العروس) بقوله: (قلْتُ: أَوْرَدَه الشَّريفُ أَبو طاهِرٍ الحَلَبيُّ فِي كتابِ الحنينِ إِلَى الأَوْطانِ لجارِيَةٍ مِن مكَّةَ بِيعَتْ فِي الشامِ، وذَكَرَ لَهَا قصَّةً وأَبياتا، أَوْرَدَها ياقوتُ بتَمامِها، وسَيَأْتي فِي قحي إِنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى، ثمَّ قالَ ياقوتُ عَن الشَّريفِ أَبي طاهِرٍ قَوْله قمنٌ أَي دانٍ قَرِيبٌ.

قالَ ياقوتُ: وَلم أَرَ فِي كُتُبِ اللغَةِ القَمْن بالفتْحِ بمعْنَى القُرْب، قلْتُ: بل جاءَ ذلكَ عَن أَئمةِ اللُّغَةِ كَمَا سَيَأْتي قَرِيبا)[1].

قلت: ومن هذا يظهر عناية المحدث القاضي أبي طاهر الحلبي في كتابه بضبط اللغة، والتدقيق في ذلك، فنقل عنه ياقوت هذا التحرير اللغوي النفيس، ونقل عنه الحافظ ابن عساكر ضبطه للفظ القط وأنه مشترك لغوي.

******

* ومنهم الإمام الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، وقد ألف هذا الحافظ الجليل كتابه (النزوع إلى الأوطان)، ويعتبر هذا الكتاب من عيون كتب الحفاظ والمحدثين في الإبانة عن قيمة الوطن.

وقد كان تأليفه الحافظ أبي سعد السمعاني له قبل تأليف (كتاب الأنساب)، ولذا تعددت إشاراته واقتباساته من كتابه: (النزوع إلى الأوطان) في كتابه (الأنساب).

فقال مثلا عند كلامه عن البصري: (هذه النسبة إلى البصرة، وشهرتها أغنتني عن ذكرها، لكن ذكرتها لكي لا يخلو الكتاب منها، يقال لها: قبة الإسلام، وخزانة

(١) تاج العروس/٣٦/١٩/.

العرب، وقد ذكرت نبذا من فضائلها في كتاب: "الإسفار، عن الأسفار"، وفي كتاب: "النزوع إلى الأوطان، والنزاع إلى الإخوان")[١].

وقال مثلا: (وقد ذكرت قصته وسبب بنائه في كتاب النزوع إلى الأوطان)[٢].

وقال: (قال الدارقطني: وأما بوان فهو شعب يعرف بشعب بوّان، وفيه يقول الشاعر:

فبالله يا ريح الشـــمال تحمّلي * إلى شـــعب بوَّان سلامَ فتى صَبِّ

في أبيات طويلة، وفيها:

فإن تبغني يومـــــا ببوان تُلفن * لدى الشعب مشدود الركاب إلى الدلب

قلت: وقد ذكرت هذه الأبيات في: "النزوع الى الأوطان")[٣].

وأقول: فهذه لمحة إجمالية من معالم كتابه الجليل، وظاهر أنه اعتنى فيه بإيراد كل ما وصل إليه اطلاعه الواسع من شواهد حب الأوطان وبرها وإجلالها، ولاشك أنه صدَّر ذلك بشواهد الآيات والأحاديث، وأنه وفَّى الصنعة الحديثية حقها، ثم عرج على رقاق أبيات الشعراء، مما هو ناضح بحب الوطن، وحنين القلوب إليه، وإن من الشعر لحكمة.

وقال أيضا: (بلدة هراة، وهي إحدى بلاد خراسان، وقد ذكرت فضائلها في "النزوع إلى الأوطان")[٤].

---

(١) الأنساب/٢/٢٥٣/، ط: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، سنة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، وانظر: سيرة الإمام أبي سعد السمعاني التميمي المروزي من كتابه الأنساب/ص١١٥/، ليحيى بن محمود بن جنيد، ط: دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، سنة ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.

(٢) الأنساب/٧/١١٩/.

(٣) الأنساب/٢/٣٤٨/.

(٤) الأنساب/١٣/٤٠٣/

وهنا إشارة أخرى إلى أنه اعتنى في كتاب (النزوع إلى الأوطان بذكر فضائل البلدان، وذكر عدد من أعيانها، ولاشك أنه انتقى من كلام كل واحد عبارات له في نزوعه إلى وطنه، وحنينه إليه.

*****

* وللحافظ المتقن الإمام أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي كتاب: (المناهل والأعطان، والحنين إلى الأوطان).

وقد احتفظ لنا ابن النديم في كتابه النفيس: (الفهرست) بأخبار نادرة عن الإمام الرامهرمزي، قال: (ابن خلاد الرامهرمزي: وهو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد، قاض، حسن التأليف، مليح التصنيف، يسلك طريقة الجاحظ، قال لي ابن سرار الكاتب: إنه شاعر، وقد كان سمع الحديث ورواه.

وله من الكتب: كتاب "ربيع المتيم في أخبار العشاق"، كتاب "الفلك في مختار الأخبار والأشعار"، كتاب "أمثال النبي (ﷺ)"، "كتاب الريحانتين، بين الحسن والحسين عليهما وعلى أهلهما السلام"، كتاب "إمام التنزيل في القرآن"، كتاب "النوادر والشوارد"، كتاب "أدب الناطق"، كتاب "الرثاء والتعازي"، كتاب "رسالة السفر"، كتاب "الشيب والشباب"، كتاب "أدب الموائد"، كتاب "المناهل والأعطان، والحنين إلى الأوطان")[1].

فأفاد هنا إفادات نفيسة عن شيخ المحدثين الحافظ الرامهرمزي، منها تأثره بالجاحظ، وأنه يسلك مسلكه في تصانيفه، وهذا يفسر العبارة العذبة الجزلة الآسرة في كتابه (المحدث الفاصل).

وإذا كان العلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة يجعل من جملة محاسن مقدمة الإمام ابن الصلاح أنها تصوغ المصطلح بقلم أديب، فكيف ببيان الإمام الرامهرمزي الذي يجري على سنن الجاحظ في التعبير.

---

(١) الفهرست/١/٤٧٨/، ط٢: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، سنة ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، قابله بأصوله وأعده للنشر الدكتور أيمن فؤاد سيد.

وتبقى من وراء ذلك كتب أخرى أفردها العلماء والباحثون لإبراز قيمة الوطن، منها:

*** كتاب لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥هـ، وقد سماه:** (الشوق إلى الأوطان)، نسبه إليه العلامة الجمال القفطي في: (إنباه الرواة)[١].

*** وللعلامة الأديب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، أَبي الطيب النحوي، المعروف بابن الوشاء الأعرابي كتاب:** (الحنين إلى الأوطان)[٢].

*** وللأديب المشهور أبي حيان علي بن محمد التوحيدي صاحب (الإمتاع والمؤانسة) كتاب:** (الحنين إلى الأوطان)[٣].

ثم هناك كتب أخرى لعدد من المعاصرين، منها:

*** كتاب:** (مقومات حب الوطن في ضوء تعاليم الإسلام)، للدكتور سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخليل.

*** وكتاب:** (حب الوطن من منظور شرعي)، للدكتور زيد بن عبد الكريم الزيد، أهداني مؤلفه نسخة منه.

*** وكتاب:** (الوطن والاستيطان، دراسة فقهية)[٤]، للدكتور محمد بن موسى بن مصطفى الدالي، وهو دراسة فقهية موسعة للآثار الفقهية المترتبة على قضية الوطن.

---

(١) إنباه الرواة، على أنباه النحاة/٦٢/٢/، ط: دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، تحقيق الشيخ محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) إنباه الرواة، على أنباه النحاة/٦٢/٣/.

(٣) الوافي بالوفيات/٢٨/٢٢/، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، تحقيق أحمد الأرنؤوط، وتركي مصطفى.

(٤) الوطن والاستيطان دراسة فقهية، ط: مكتبة الرشد، الرياض، سنة ١٤٣٥هـ-٢٠١٣م.

المبحث الرابع
في نبذة من كلام المفسرين والفقهاء والزهاد وبقية أرباب العلوم عن الوطن

لمحة من حب الوطن في القرآن الكريم وكلام المفسرين:

للإمام الفخر الرازي ملمح لطيف في الاستدلال من القرآن الكريم على حب الوطن، وأنه داع فطري شديد العمق في النفس؛ أشار إليه في: (التفسير الكبير) في خواتيم سورة الأنفال، عند تفسير قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ)**[١]، فقال: ("وهاجروا" يعني: فارقوا الأوطان، وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة، قال تعالى: **(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ)**[٢]، جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس)[٣].

كأن الله تعالى يقول: ولو أني كتبت عليهم أعظم مشقتين في الوجود لم يمتثلوا، وأعظم مشقتين هما قتل النفس، ويقابلها فراق الوطن، فمشقة قتل النفس في كفة، ويوازيها ويساويها تماما فراق الوطن.

ففراق الأوطان عند العقلاء أمر صعب جدا، يساوي ألم قتل النفس، مما يدل على أن التعلق بالوطن وحبه أمر عميق في النفس، وأنه محمود.

والذي سبق إلى اقتناص هذه اللمحة في فهم الآية الكريمة هو الجاحظ، حيث قال في رسالة (الأوطان والبلدان): (ذكر الله تعالى الديار فخبر عن موقعها من

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

(٢) سورة النساء، الآية ٦٦

(٣) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير/٥٥٢/٧/، ط: دار الغد العربي، القاهرة، سنة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

قلوب عباده، فقال: **(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﷺ)**[1]، فسوى بين موقع قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم، وقال: **(قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﷺ)**[2]، **فسوى بين موقع الخروج من ديارهم وبين موقع هلاك أبنائهم)**[3].

*

*** ومن استنباطات المفسرين أيضا قول الإمام ابن الجوزي أيضا في (تذكرة الأريب): ("فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ"**[4]: ابتدأتها، **"وَلْيَأْخُذُواْ": ي**عني: الباقين، **"فَإِذَا سَجَدُواْ"**: يعني: المصلين، **"فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَائِكُمْ"**: أي: فلينصرفوا إلى الحرس، **"فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ"**: عدتم إلى الوطن، **"فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ" أي: أتموها، "كِتَابًا مَّوْقُوتًا"**: أي مفروضًا)[5].

وهنا فقد لمح الإمام ابن الجوزي بشفوف نظره ودقة فهمه في السياق القرآني أن الاطمئنان المعبر عنه في الذكر الحكيم إشارة إلى رجوعهم إلى أوطانهم، حيث خرج كل منهم من حال الخوف والترقب والفزع، وعاد إلى وطنه وأهله، ورفع الجرح عنه، وسكن خاطره واستقر، فإذا بالقرآن الكريم يشير إلى ما يشتمل عليه الوطن من تلك المعاني الجليلة.

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٦

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٤٦.

(٣) الأوطان والبلدان (رسائل الجاحظ)/١١٢/٤/، ط: دار الجيل، بيروت، لبنان، تحقيق عبد السلام هارون.

(٤) سورة النساء، الآية ١٠٢، والآية ١٠٣.

(٥) تذكرة الأريب، في تفسير الغريب/ص٧١/، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، تحقيق طارق فتحي السيد.

وقد تعرض (~) في: (زاد المسير) إلى ذلك، فبسط أقوال المفسرين فقال: (قوله تعالى: "فَاذْكُرُوا اللَّهَ"[1]: في هذا الذِّكر قولان: أحدهما: أنه الذكر لله في غير الصلاة، وهذا قول ابن عباس، والجمهور قالوا: وهو التسبيح، والتكبير، والدعاء، والشكر. والثاني: أنه الصلاة، فيكون المعنى: فصلوا قياماً، فان لم تستطيعوا فقعوداً، فان لم تستطيعوا فعلى جنوبكم، هذا قول ابن مسعود.

وفي المراد بالطمأنينة قولان: أحدهما: أنه الرجوع إلى الوطن عن السفر، وهو قول الحسن، ومجاهد وقتادة. والثاني: أنه الأمن بعد الخوف، وهو قول السدي، والزجاج، وأبي سليمان الدمشقي)[2].

وهنا وقفة مهمة؛ حيث إن الإمام ابن الجوزي (~): تباينت عنده أغراض التأليف، فلما أن كان كتابه (زاد المسير) قائما على حكاية أقوال المفسرين على وجه الاختصار، فقد حكى القولين منسوبين إلى من قال بهما من الأئمة، ولما أن كان كتابه (تذكرة الأريب) مختصرا قائما على الاختيار والانتقاء من بين أقوال المفسرين فقد اقتصر هو على تفسير الآية بمعنى الوطن، وارتضاه، وما حكى سواه، بل أورده مجزوما به، مما يدل على أن هذا هو اختياره وترجيحه.

*****

* ومن استنباطات المفسرين أيضًا: قول العلامة الملا علي القاري في: (مرقاة المفاتيح): (ومفارقة الأوطان المألوفة هي أشد البلاء، ومن ثم فُسِّرَ قوله تعالى:

---

(١) سورة النساء، الآية ١٠٣.

(٢) زاد المسير، في علم التفسير/١/٤٦٣/، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٢٢هـ، تحقيق عبد الرزاق المهدي.

"**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** "[1] بالإخراج من الوطن؛ لأنه عقب بقوله: "**وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ** ")[2].

ومن ثم فإن كل آية تظهر فضل الهجرة فإنها راجعة إلى هذا الأصل، والذي هو شدة الصبر ومغالبة النفس، على فراق الأوطان المحبوبة، إيثار لمعنى من المعاني الشريفة، فكم لهذا المعنى من قدر، حتى تصبر النفس على تلك المشقة العظيمة لأجله.

قال الشاعر:

ثلاث يعز الصبر عند حلولهـــــا * ويعزب عنهـــــا عقل كـــل لبيب

خروج اضرار مـــــن بلاد تحبها * وفرقـــــــة أصحاب، وفقد حبيب

******

*** ومن استنباطات المفسرين أيضا قول الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس في تفسيره:** (فقد علم الناس من قبل أربعة عشر قرناً أن تربة الوطن معجونة بريق أبنائه، تشفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقداً من المحبة والإخلاص له، وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرر لهم من منن الوطن منّة كانوا عنها غافلين، فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تغذي وتروي، فجاءهم من علم النبوة أنها تشفي فليس هذا الحديث إرشاداً لمعنى طبي، ولكنه درس في الوطنية عظيم.

ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرُّقىَ والطب، فإنه بباب "حب الوطن" أشبه.

وما نرى رافع العقيرة بقوله:

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩١.

(٢) مرقاة المفاتيح/٧/٥٨٢/.

أَلَا لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً * بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيْلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مِجَنَّةٍ * وَهَلْ تَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيْلُ

إلاّ سائرًا على شعاعه.

وما ترى ذلك الغريب المريض الذي سئل فيم شفاؤك؟ فقال: شمة من تربة إصطخر، وشربة من ماء نهاوند، إلاّ من تلامذة هذا الدرس.

ولقد زادنا إيماناً به بعد إيمان أنه يقول: تربة أرضنا، بريقة بعضنا. ولم يقل: تربة الأرض بريق بني آدم فليس السر في تربة وريق ومرض. ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا– فهذه– والله ربنا– صخرة الأساس في بناء الوحدة الوطنية والقومية، لا ما يتبجح به المفتونون.

ويقول الروحانيون: إن هناك روحاً طاهرة تتصل بتربة الأرض التي خلق المريض منها، وتغذى بنباتها ومائها، وتنفس كبده في جوها وهوائها، من ريقه منفوثة نفث الخير، من نفس مؤمنة قوية الروحانية طيبتها، فيكمل التكوين بين الريق والتربة مع اسم الله الذي قامت به السموات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، فيحصل الشفاء بهذا العمل النفساني. وإذا تجلت النفس بعجائبها لم يبق في الوجود عجيب)[1].

******

لمحة من حب الوطن عند الفقهاء:

بل لقد ذهب الفقهاء إلى تعليل حكمة الحج وعظمة ثوابه إلى أنه يهذب النفس بفراق الوطن، والخروج على المألوف، قال شيخ السادة المالكية الإمام المجتهد الشهاب أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي في: (الذخيرة): (ومصالح الحج:

(١) مجالس التذكير، من كلام الحكيم الخبير/ص٣٧٨/.

تأديب النفس بمفارقة الأوطان، وتهذيبها بالخروج عن المعتاد من المخيط وغيره ليذكر المعاد، والاندراج في الأكفان، وتعظيم شعائر الله تعالى في تلك البقاع)[1].

فالإمام القرافي بعقله الأصولي الفقيه النقاد غاص على حكم الحج وآدابه، وأثره في نفوس العباد، فاهتدى إلى أن من مقاصده المعتبرة شرعا أن تتصهر النفوس بمشقة فراق الأوطان، وتعتريها حالة الغربة بما تبعثه في النفس من انقطاع عن الأهل والديار والمألوف، وكم لهذا من تهذيب للنفوس، فإذا امتزج ذلك بهدير أصوات مئات الألوف بالتلبية والتسبيح والفاقة والتوبة إلى الله فإن هذا المجموع يحدث في النفس أبلغ الأثر.

******

لمحة من حب الوطن عند الأولياء والصالحين:

لم يزل دأب الصالحين محبة الأوطان، حتى لقد روى أبو نعيم في: (حلية الأولياء) والحافظ السِّلَفي في (الطيوريات) بالسند إلى سيد الزهاد والعباد إبراهيم بن أدهم أنه قال: (عالجت العبادة فما وجدت شيئا أشد على من نزاع النفس إلى الوطن)، وبسنده إليه أنه قال أيضا: (ما قاسيت فيما تركت شيئا أشد علي من مفارقة الأوطان)[2].

فالناظر إلى هذا الكلام يرى من سيد الزهاد والأصفياء إبراهيم بن أدهم إخبارا عن عمق تمكن الحنين إلى الأوطان في النفوس الزاكية، وأن حنينه إلى وطنه ما زال يعتمل في النفس ولا يزول، وأنه كلما تسلى عنه بالتعبد عاوده الحنين إلى

---

(١) الذخيرة/٣/١٩٤/، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة ١٩٩٤م، تحقيق الأستاذ محمد بو خبزة.

(٢) حلية الأولياء/٧/٣٨٠/، ط: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الفكر ببيروت، سنة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، والطيوريات/٣/٨٧٣/، ط: أضواء السلف، الرياض، سنة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، تحقيق دسمان يحيى معالي، وعباس صخر الحسن.

الوطن، مما يكشف عن هذا الجانب النبيل الجليل من أحوال الصالحين القائمين على تزكية الأنفس عن كل معنى ظلماني قبيح، وأن التعلق بالأوطان عندهم كان معنى شريفا متأصلا لا يزول من النفوس المنيرة ذات العبادة والنسك.

*****

لمحة من حب الوطن عند الحكماء:

وقد روى الدينوري في: (المجالسة): بسنده أن الأصمعي قال: (قالت الهند: الجِنَّة في ثلاثة أصناف من الحيوان: الإبل تحن إلى أعطانها وإن كان عهدها بها بعيدا، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدبا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أنفع منه)[١].

وروى أيضا من طريق الأصمعي قال: سمعت أعرابيا يقول: (إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه)[٢].

قال أبو عمرو بن العلاء: (مما يدلّ على حرية الرجل وكرم غريزته: حنينه إلى أوطانه، وتشوّقه إلى متقدم إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه)[٣].

******

لمحة من حب الوطن عند الشعراء والأدباء:

ولم يزل الشعراء يبكون ويستبكون، وتجيش منهم الخواطر، وتتحدر منهم روائع البيان في الإعراب عن شدة الحنين والشوق إلى الأوطان، حتى إن الباحث المتتبع ليظفر من منثور أشعارهم بما يوفي ديوانا جليلا، وسفرا كبيرا نبيلا، في

---

(١) المجالسة وجواهر العلم/٢/٢٠٩/، ط: دار ابن حزم، بيروت، لبنان، سنة ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، والمقاصد الحسنة/ص٢٩٧/.

(٢) المجالسة وجواهر العلم/٢/٢٠٨/.

(٣) زهر الآداب، وثمر الألباب/ص٣/٧٣٦/.

الأشعار الفائقة، والأبيات الرائقة، المعبرة عن شدة فراق الأوطان، على وجدان الإنسان.

بل ربما ترنم بعضهم بشدة الحنين إلى بقاع، هواؤها غير طيب، وماؤها غير عذب، ولا تطيب فيها أسباب الإقامة، ولكنها من وراء ذلك وطن، وحب الوطن يغلب ذلك جميعا، فقال الشاعر:

بلادٌ ألفناها ولـــــــم تكُ مألفا * وقد يُؤْلَفُ الشيءُ الذي ليس بالحسنْ

وقد تؤلَفُ الأرض التي لم يطِبْ بها * هواءٌ ولا مـــاءٌ، ولكنهـــا وطنْ

ولأجل هذا الباعث الفطري الكامن في أعماق الإنسان، فقد عظم الله تعالى شأن الهجرة والمهاجرين، لما اشتملت عليه من مشقة على النفس، ومكابدة لها، بالصبر على فراق الأوطان، ومرابع الصبا، ومعاهد النشأة، فلأجل هذا رتب الله تعالى على الهجرة من الفضل والثواب ما هو مذكور في القرآن الكريم في غير موضع.

وقال ابن بسام في: (الذخيرة): (غير أن الوطن محبوب، والمنشأ مألوف، واللبيب يحن إلى وطنه، حنين النجيب إلى عطنه، والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله، ولا ينسى بلدا فيه مراضعه، قال الأول:

أحب بلاد الله مـــــا بين منعج * إليَّ وســـلمى أن يصُوبَ سحابها

بلاد بها عقَّ الشـــــباب تمائمي * وأول أرض مس جلدي ترابهـــا)[1]

قال صاحب (ديوان المعاني): (وذكر ابن الرومي العلة التي يحب الوطن لأجلها وليس له في ذلك إمام إلا أحمد بن إسحاق الموصلي فإنه قال:

(١) الذخيرة، إلى محاسن أهل الجزيرة/١/٣٤٣/، ط: دار الثقافة، بيروت، سنة ١٤١٧هـ-١٩٩٨م، تحقيق: الدكتور إحسان عباس.

أحب الأرض تســـــكنها سليمى * وإن كانت بواديهـــــا الجدوب

ومـــا دهري بحب تـــراب أرض * ولكن مـــن يحل بهـــا حبيب

وقال ابن الرومي:

ولـــــي وطنٌ آليتُ أن لا أبيعه * وألا أرى غيري له الدهـــر مالكا

عهدت به شـــرخ الشباب ونعمة * كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا

فقد ألفته النفس حتى كأنـــــه * لها جسد لولاه غُودِرتُ هالكا

وحبب أوطـــــانَ الرجال إليهم * مآربُ قضَّاهـــا الشباب هنالكا

إذا ذكـــــروا أوطانهم ذكَّرَتْهُمُ * عهود الصبا فيهـــا فحنُّوا ذلكا

وقد ضـــامني فيه اللئيم وغرني * وها أنا منه معصـــــم بحبالكا

فإن أخطأتني مـــن يمينك نعمة * فلا تخطئنه نقمة مـــن شمالكا)[1]

وهذا ختام هذا البحث، حول قيمة الوطن عند المحدثين، والذي أرجو من واسع فضل الله وكرمه أن أكون قد وفقت إلى القيام بواجب البر والخدمة لجانب من مواريث النبوة تشوه في السنوات الماضية، فأوجب على المنسوبين للحديث الشريف النهوض إلى إزالة الغبار والسوء عنه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) ديوان المعاني/٢/١٨٩/.

المراجع والمصادر

• الإحسان، في تقريب صحيح ابن حبان، للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

• إنباه الرواة، على أنباه النحاة للعلامة جمال الدين القفطي، ط: دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، تحقيق الشيخ محمد أبو الفضل إبراهيم.

• الأنساب، للإمام أبي سعد ابن السمعاني، ط: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، سنة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني.

• الأوطان والبلدان للجاحظ، (رسائل الجاحظ)، ط: دار الجيل، بيروت، لبنان، تحقيق الأستاذ الشيخ عبد السلام هارون.

• تذكرة الأريب، في تفسير الغريب، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، تحقيق طارق فتحي السيد.

• حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، ط: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الفكر ببيروت، سنة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

• الذخيرة، للإمام الشهاب أبي العباس أحمد بن إدريس القرافي، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة ١٩٩٤م، تحقيق الأستاذ محمد حجي.

الذخيرة، إلى محاسن أهل الجزيرة، لأبي الحسن علي بن بسام التغلبي، ط: دار الثقافة، بيروت، سنة ١٤١٧هـ-١٩٩٨م، تحقيق: الدكتور إحسان عباس.

• الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للإمام أبي القاسم السهيلي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، تحقيق عمر عبد السلام السلامي.

• زاد المسير، في علم التفسير، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٢٢هـ، تحقيق عبد الرزاق المهدي.
• سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ط: جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، سنة ١٤٢١هـ.
• سنن الترمذي، للإمام الحافظ محمد بن عيس بن سورة الترمذي، ط: جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، سنة ١٤٢١هـ.
• السنن الكبرى، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط٣: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، تحقيق محمد عبد القادر عطا.
• السنن الكبرى، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، سنة ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، أشرف عليه عبد الله عبد المحسن التركي، حققه وخرج أحاديثه حسن عبد المنعم شلبي.
• سيرة الإمام أبي سعد السمعاني التميمي المروزي من كتابه الأنساب، ليحيى بن محمود بن جنيد، ط: دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، سنة ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.
• شرح السنة، للإمام المحدث الحسين بن مسعود البغوي، ط٢: المكتب الإسلامي، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، حققه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش.
• شرح صحيح البخاري للإمام أبي الحسن علي بن خلف بن بطال، ط: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة ضبط نصه وعلق عليه: أبو تميم ياسر إبراهيم.
• شرح مشكل الآثار، للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، تحقيق شعيب الأرنؤوط.

• صحيح ابن خزيمة، للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري، ط: المكتب الإسلامي، سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي.

• صحيح البخاري، لأمير المؤمنين في الحديث الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، ط: جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، سنة ١٤٢١هـ.
صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ط: جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، سنة ١٤٢١هـ.

• طبقات الشافعية الكبرى، للإمام تاج الدين السبكي، ط: دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي.

• الطيوريات، من انتخاب الشيخ الأجل الفقيه الإمام الحافظ شيخ الإسلام وأحد الأنام فخر الأئمة أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصبهاني من أصول كتب الشيخ أبي الحسين بن المبارك الطيوري الصيرفي الحنبلي، ط: أضواء السلف، الرياض، سنة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، تحقيق دسمان يحيى معالي، وعباس صخر الحسن.

• الفهرست، لأبي الفرج محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم، ط٢: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، سنة ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، قابله بأصوله وأعده للنشر الدكتور أيمن فؤاد سيد.

• فيض القدير، شرح الجامع الصغير، لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، ط: دار الفكر، بيروت، لبنان، (د ت).

• مثير الغرام الساكن، إلى أشرف الأماكن، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، ط: دار الحديث، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

• مجالس التذكير، من كلام الحكيم الخبير، للشيخ عبد الحميد بن باديس، ط٢: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، جمع وترتيب الدكتور توفيق محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان.

• المجالسة وجواهر العلم، للدينوري، ط: دار ابن حزم، بيروت، لبنان، سنة ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان.

• المستدرك على الصحيحين، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، ط٢: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

• مسند الروياني، للحافظ أبي بكر محمد بن هارون الروياني، وبذيله المستدرك من النصوص الساقطة، ط: مؤسسة قرطبة، القاهرة، سنة ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ضبطه وعلق عليه أيمن علي أبو يماني.

• المعجم الكبير، للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د ت)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

• مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، للإمام فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر الرازي، ط: دار الغد العربي، القاهرة، سنة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

• النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، ط: المكتبة الإسلامية، مصر، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي.

• الوافي بالوفيات، للعلامة الصلاح خليل بن أيبك الصفدي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، تحقيق أحمد الأرنؤوط، وتركي مصطفى.

• الوطن والاستيطان دراسة فقهية، للدكتور محمد موسى مصطفى الدالي، ط: مكتبة الرشد، الرياض، سنة ١٤٣٥هـ-٢٠١٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص العربي	٣
الملخص الإنجليزي	٤
المقدمة	٥
المبحث الأول: جمع كلام الحفاظ والمحدثين وشراح الحديث عن قيمة الوطن وترتيبه على مسائل	٧
المبحث الثاني: في ذكر طائفة من المحدثين برز عندهم ملمح حب الوطن، فتناقله المحدثون بعدها عنهم ومدحوهم به	٢٠
المبحث الثالث: في الكتب والمؤلفات التي أفردها الحفاظ والمحدثون وغيرهم عن الوطن، وأكثر المصنفين في هذا الباب من المحدثين	٢٢
المبحث الرابع: في نبذة من كلام المفسرين والفقهاء والزهاد وبقية أرباب العلوم عن الوطن	٣٠
المصادر والمراجع	٣٩
فهرس الموضوعات	٤٣